(3)

الانعزالية

التمركز حول ذات الجماعة الخيّرة في مواجهة إطلاقية الغير الشريرة كرّس تدريجيا لعزلة نفسية داخل عالم الجماعة التي تمثل بيئة الإسلام النقي المشبع بمشاعر الغيرة على الدين في مواجهة عوالم أخرى من ناقصي الإسلام والمنافقين وغير المسلمين من أعداء الأمة، فيُستدرَج أتباع الجماعة إلى كهف العزلة، وهم بين الناس، فعلاقاتهم الاجتماعية تتكون في محيط الجماعة أو بدافع منها، يتعايشون في أسرٍ، أو خلايا داخل الجماعة يجمعهم عدد من اللقاءات الأسبوعية والشهرية، وينظم علاقة الفرد بالجماعة نقيب أو مسئول يمثل القائد والأب والأستاذ والمثل الأعلى للمجموعة التابعة له، ويمثل السمع والطاعة للنقيب أو المسئول ذروة السلم الذى يُنتظر من المجموعة التابعة للنقيب أن تصل إليه، فكلما استسلم الفرد لسلطان الجماعة على سائر حياته، ازداد الفرد نضجًا تنظيميًا، فيشترط البنا على الأخ المراد ترقيته إلى صفوف الإخوة العاملين في رسالة التعاليم المتضمنة لأركان بيعة الأخ العامل: «أن تحيط القيادة علما بكل ظروفك. وأن تكن دائم الاتصال الروحي والعملي بها، وأن تستأذن في كل الخطوات الهامة، وأن تعتبر نفسك دائما جنديا في الثكنة تنتظر الأمر»[1] ويسأل البنا في رسالته إلى الأخ المقبل على البيعة «هل هو مستعد لاعتبار الأوامر التي تصدر إليه من القيادة - في غير معصية طبعا - قاطعة لا مجال فيها للجدل ولا التردد ولا الانتقاص، ولا التحوير؟ هل هو

(1) رسالة التعاليم. ص44.

مستعد لأن يفـرض في نفسه الخطأ، وفي القيادة الصواب إذا تعارض ما أمر به مع ما تعلم في المسائل الاجتماعية التي لم يرد فيها نص شرعي؟ هل هو مستعد لوضع ظروفـه الحيوية تحت تصرف الدعوة (الجماعة)؟ وهل تملك القيادة في نظره الحق في الترجيح بين مصلحته الخاصة ومصلحة الدعوة (الجماعة).» [1]

وتتشكل ثقافة أبناء الجماعة من مصادر المعرفة المعتمدة عندها، فيشترط البنـا لتوثيـق الأخ العامل «أن يُكـثر المطالعة في رسائل الإخـوان المسلمين، وجرائدهـم ومجلاتهـم.. أن يتخلى عن صلتـه بأي هيئـة أو جماعة لا يكون الاتصـال بها في مصلحة الدعوة، وبخاصـة إذا أمرت بذلك... أن تقاطع كل محكمـة غـير إسلامية، فلا تذهـب إليهـا إلا مضطرا، والأنديـة والصحف والجماعـات والمـدارس والهيئات التـي تناهض فكرتـك الإسلامية مقاطعة تامـة.. أن تعـرف أعضاء وحدتك فردا فـردا معرفة جيـدة وتعرفهم بنفسك معرفة تامة، وتؤدي حقوق أخوتهم كاملة.. أن تحافظ على الأوراد الإخوانية وألا تقصر في أدائها إلا لضرورة قاهرة.» [2]

فالجماعـة تختار مصـادر الأخ المعرفية، وتحدد إخوانـه، فتشبع عاطفته، وتشكل عقله، فيعيش الإخوان بين الناس إلا أنهم في انعزال فكري وشعوري يحميهم من عدوى التخلي عن الإسلام في فهمه الشامل الصحيح الغير سائد في المجتمع، معتقدين أنهم العقلاء في عالم الجنون، الأصحاء في دنيا المرض..

ويصبـح الانعـزال ضرورة عند سيـد قطب لبقاء الجماعـة المسلمة التي تهيئ نفسها بذاك الانفصـال عن المجتمع لإقامة دار الإسلام فيقول: «أنه لا

(1) السابق. ص22.
(2) السابق. ص 43، 44.

نجـاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليهـا العذاب إلا بأن تنفصل عقيديًا وشـعوريًا ومنهج حيـاة عن أهل الجاهلية من قومهـا حتى يأذن الله لهـا بقيام دار إسلام تعتصم بها، و إلا أن تشعر شـعورًا كاملًا بأنها هي الأمة المسلمـة، وأن ما حولها ومن حولها ممن لم يدخلـوا فيما دخلت فيه جاهلية وأهل جاهلية».[1]

ولا يستثـنى مـن الانعـزال المسجد، فمساجـد المسلمين صـارت مساجد ضرار لا تختلـف عـن معابـد الجاهلية، فيقـول: «يرشـدنا اللـه إلى اعتزال معابـد الجاهلية، واتخاذ بيوت العصبة المسلمـة مساجد تحسّ فيها بالانعزال عـن المجتمع الجاهلي، وتـزاول فيها عبادتها لربها على نهـج صحيح، وتزاول بالعبـادة ذاتهـا نوعًا من التنظيم في جـو العبادة الطهـور... اعتزال الجاهلية نتنها وفسادها وشرها ما أمكن في ذلك، وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسها، لتطهرها وتزكيها، وتدربها وتنظمها، حتى يأتي وعد الله لها.»[2]

تلك الحالة من الانعزال والمركزية تصنع نوعا من الجمود والتصلب يؤدي بـدوره إلى انشقاقات وانشطارات متعاقبة عـلى الجماعة منذ تأسيسها وحتى عصرنـا، فجسم الجماعة الصلب المتجمد لا يتمتع بأي قدر من مرونة تعاطى الأفكـار أو مدارسة فكر المختلف ليس مـن خارج الجماعة بل من داخلها، فمـن يملك فكرا مختلفا عليه أن يرحـل مع فكره، معلنة عبارتها الشهيرة التي يرددها أبناء الصف الإخواني «الدعوة تنفى خبثها» وحقيقتها «التنظيم ينفي خبثـه» وكأنها النـار التي تُجلى الصدأ عـن الحديد، فأي محاولـة للتفكير هي

(1) سيد قطب. في ظلال القرآن. ج4. ص2212. دار الشروق. القاهرة.
(2) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص1816.

شـهوة تتجه بصاحبها بعيـدا عن الحق الذى استقرت عليـه الجماعة، فالعقل الشجـرة المُحرَّمة في جنة الجماعة، و إذا كانت الجماعة ممثلة الحق، فكل من يخالفهـا ممثـل الباطل الذى يجـب أن يقف بعيدا عن الحـق في مربع العداوة، فالأمـور بين البياض والسواد بـلا ألوان أخرى، فلا مجـال لتعددية قيمية في فكر الجماعات، وهذا يفـسر الحالة الانشطارية للجماعات الإسلامية قديما وحديثا، وتعدد أسمائها.

و إن احتفظـت جماعـة مثـل الإخوان المسلمـين رغم تلـك الانقسامات بكونها الأكثر حشدا، وأتباعها الأضخم عددا إلا أنه تضخم المرض، فتضخم جسد الجماعات ليس نموا صحيا بل سمنة ركود تذوب متى رفعت الجماعات عـن رأسها قبعة شـعارات الإسلاميـة والحاكمية ذاك الـصراخ الذي يحتشد حوله المتعاطفون؛ فمتى توقفت الجماعة عن تقديم نفسها كمرادف للدعوة الإسلاميـة - كـما نرى في نصوص مؤسسها - ستصبـح تنظيمًا بأفكار بشرية يقدم فهمه للإسلام، وليس هو الإسلام، وساعتها يُختبر حجمها الحقيقي.

قد يحـاول البعـض من داخـل الجماعة إسماع هـذا الجسـد المنعزل عن الأصوات الخارجية صوت النقد والمناقشة والمراجعة والتقييم إلا أن الجماعة تسـارع برأب الصـدع، ونفي الخبـث المنشـق في عمليات تطهـير متعاقبة، فالجماعـة لا تميـز بـين النقد بالـدال، والنقـض بالضـاد، فأي محاولـة نقدية داخـل فكر الجماعة هي محاولـة انشقاقية؛ فالجماعة تحـدد بدقة المُدخَلات المعرفية لعقول أتباعها الذين يتـم تربيتهم تنظيميا وليس إسلاميا، فمصطلح التربيـة الشائع في لغـة الجماعة ينصرف - في حقيقتـه - إلى التربية التنظيمية بتعميـق الانتماء أكثر منه تربية روحية، فالغايـة التربوية المنشودة في الأخ

هـي الالتزام بواجبـات الجماعة، ولائحتهـا الداخلية، وليـس القانون العام وواجبـات وطنٍ انفصل عنه، وهو مـازال يعيش فيه، فتركز جماعة الإخوان المسلمـين على رسائـل البنا وتفسـير الظلال وبعـض كتابات أبنـاء الصحوة الإسلاميـة مما راجعته الجماعـة؛ لتجمع أبناءها على معـينٍ فكريّ صافٍ لم يتلوث بأفكار دخيلة عليه قد تصيبه بعدوى التفكير والتساؤل.

و إمعـان الجماعة في تعميق مركزيتها للحـق واحتكارها للفهم الصحيح الشمولي للإسلام أوصل أتباعها إلى حافة هوة التكفير، فأمسك البعض نفسه عـن السقوط مكتفيًا بوصف المجتمع بأوصـاف الغفلة والفسق والضلالة.. وسقط من سقط واصفًا المجتمع بالجاهلية والكفر.

فالجماعات الإسلامية تشترك في خطـاب تمييز ديني يستتر خلفه التكفير حينًـا و يظهر حينًا آخر تبعا للمنـاخ العام، فتنشط جينات التكفير في جسد الجماعـات في أوقات المواجهة وأزمنة الصراع، فحين تُطلق الجماعات النفير العـام لمواجهة خصومها الذين تراهم أعداء الإسلام، يكون التكفير إحدى أدوات المعركـة، و إن تغـيرت أسـماء الجماعـات قديمـا وحديثـا إلا أنه ظل التكفـير أصل الداء، وكما تُكفِّر بعض الجماعات بذنب أحدثته تكفرك جُلّ الجماعـات برأي اجتهدت فيه مـا دام خالفهم، فهم الصواب والحق والدعوة والإسلام، كل هذه المفردات صارت لها دلالة واحدة تجسدت فيهم، وأصبح الخطأ والباطل والكفر في مخالفيهم.

وفي الوقـت الـذى كافئ اللـه المجتهد أصـاب أم أخطأ تأكيـدا على قيمة إعـمال العقل في المسكوت عنه أو ما يحتمل أكثر من دلالة من النصوص، فقال النبي ﷺ «من اجتهد فأصاب له أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر» عاقبت

جماعات التشدد المجتهـد فكفرت قديما عليا وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وفسّقت جماعات الإسلام السياسي مخالفيها حديثا، ولم تميز عقولهم كـون الاختلاف حول مسألة طارئة ليست مـن العقيدة، وأنه محض اجتهاد في الرأي في أمر عملي يتعلق بالسياسة، غير أن أفكارهم كحمم البركان في تدافعه، سرعـان ما تنتقل من سيء إلى أسوء، فتحوّل الاختلاف في الاجتهاد والرأي عند بعـض الجماعات إلى اختـلاف في الدين، فإذا به كفـر يستوجب الاستتابة، ثم حرب وقتـال ودم، وهذا الجهاد ذروة سنام الإسـلام في فهمهم، فالجهاد عندهم هـو حرب مخالفيهـم في الرأي، فخطابهم يختلـط فيه الاجتهـاد الظني بمقطوع الإسـلام الثابت يقينا، فتحوّل رأيهم إلى مُسلَّمة مقدسة يجب قبولها، وأصبحت قضيتهـم عقائديـة، و إن كان اللـه لم يكفر مجتهدا بخطـأ إلا أن هذا لم يكن كافيًا ليُعف الصحابة من التكفير قديمًا، ولا مخالفي الجماعات حديثا.

وفي هذا السياق يستدعى «الولاء والبراء» فكفّرت الجماعات قديما من لم يعلـن براءته من عثمان وعلي ومن تبعهم من الصحابة لأنه صار شريكا لهما فيما رأوه ظلما، أصبحوا به خارجين عن الإسلام، فلا يصحّ إسلام العبد حتى يكـون تبعا لأفكارهم، ولا يكتمل إيمانه إلا بالعمل بين صفوفهم، ولا يتحقق ذلـك إلا أن تعلن بداية البراءة من هؤلاء الصحابة الكرام، وحكّام بني أمية، وأصبـح كل كلام دون الحديث عن البراءة لغوًا لا يقفون عنده، ولا يهتمون به، لسان حالهم حدثني أولا في البراءة من فعل الظالمين و إلا أنت شريك لهم في ظلمهـم، فأخرجوا عمر بن عبد العزيز من جماعة المسلمين المتمثلة فيهم؛ وحكمـوا بكفره؛ لأنه لم يتـبرأ من فعل الأمويين، رغم إقـرار عمر بن عبد العزيز بأن أهله من الأمويين ممن ظلموا، وعمل على ردّ المظالم إلى أهلها، إلا أنه لم ينطق بكلمة البراءة..